



المركز الفلسطيني للإرشاد
Palestinian Counseling Center

الآثار النفسية الاجتماعية لأسر النساء على عائلاتهن

عنان سرور - المركز الفلسطيني للإرشاد

إن الاعتقال والأسر لأسباب أمنية لهو أصح جزء من السيرة الذاتية لكل فلسطيني، خاصة الذكور منهم. ففي إحدى الإحصائيات أُشير إلى أن ثلث الفلسطينيين قد تم اعتقالهم والتحقيق معهم خلال الانتفاضة الأولى. أما أسر النساء فيبقى له شأن خاص لما لهن من موقع اجتماعي في المجتمع الفلسطيني المحافظ. فإن أسر المرأة بيد العدو يذكر أفراد المجتمع بشكل عام وذوي الأسيرة بشكل خاص بمفهوم السبي. ويحمل هذا المفهوم في طياته معنى الإذلال، الضعف، اللاحول، والاستغلال. هذا بعكس ما تثيره كلمة 'أسير حرب' وفيها الكثير من البطولة والرجولة والصمود. إن المشاعر المثارة جراء التفكير ب"السبي" هي صعبة جدا للهضم والتعامل معها، مما يجعل الضحية وذويها على حافة الانهيار.

هذا الوصف - سبايا - وإن كان جارحا بعض الشيء، فهو جاء ليثير مدى مأساة الأسيرة وذويها حيث تغمرهم الحاجة للانتقام والشعور باللاحول، وكثيرا ما يبدوون في تبادل الاتهامات للتخفيف من شدة توترهم. في الكثير من الأحيان فإن رفقات الأسر يكون جانبا داعما ذا تأثير قوي يعطي الأسيرة الثقة بالذات لتتخلص من شعور السلبي وتتقوى هوية المناضلة، أما أهلها الذين يعيشون في المجتمع فينقصهم هذا الدعم ليستبدله نظرات الناس التي تثبت الشفقة مما يزيد من مأساتهم. هذا الشعور قد تقل حدته في حالة قناعة الأهل بنضال ابنتهم ولكنه سيكون قاتلا إذا ما بدأ يتغلغل الشعور بالذنب الذي يتهم به أفراد العائلة أنفسهم بأنهم كانوا السبب في أسرها.

تأتي هذه المقالة لتصف أوضاع عائلات الأسيرات الفلسطينيات في ظل أسر ابنتهم/أمهم. هذه المقالة تتأسس من اطلاعي على قصص عائلات 65 أسيرة ممن قبعن في سجون الاحتلال خلال سنة 2007. لن استعمل الإحصائيات في دعم ادعائي وذلك لكون المعلومات التي في حوزتي غير شاملة (65 من أصل 92 عائلة) وغير دقيقة. لذا سأكتفي بوصف سردي معمل بتفسير مجريات حياة هذه العائلات.

عائلة الأسيرة قبل الأسر

للإجابة على السؤال 'من هي الفتاة الفلسطينية التي تتعرض للأسر؟'، كان هناك مؤشران واضحا. الأول، وجود أسير حالي أو أسير سابق من عائلتها النووية. العديد من عائلات الأسيرات لها تاريخ في الاعتقال والأسر، فيكون أسر الفتاة إما كجزء من الضغط على أفراد آخرين من العائلة وإما لما تشارك به الفتاة في المقاومة بشكل مباشر.

هذه العائلات تتعامل مع الأسر كتضحية مما يجعلها أكثر صمودا أمام الآثار النفسية السلبية للأسر بالرغم من تعدد الأسرى بها. كذلك، بعض العائلات تحمل في تاريخها فقداناً أليماً لشهيد أو هدم منزل. أما المؤشر الثاني فهو وجود مشاكل عائلية أخرى تضع الأسيرة في موقع اللا حول لتتقصد معنى الحياة. هذه الأسيرة تختار المقاومة، وغالبا بشكل غير منظم، لترجع لذاتها الشعور بالقيمة ولترجع للحياة معناها.

الأسيرة الإبنة

أكثر ما يلفت الانتباه حول والدي الأسيرات هو كونهم يعانون من أمراض جسدية كثيرة. أغلب هذه الأمراض لها جانب نفسي حيث تتركز أغلبها في: ضغط الدم، جلطة دماغية، أمراض في العظام مثل الدسك والغضروف والروماتزم، السكري، أمراض المعدة، والشقيقة. هذه الآلام الجسدية تعبر عن مدى سوء الحالة النفسية لمن يعيش تجربة أسر ابنته. فالعائلة الفلسطينية تدير حياتها حول حماية بناتها من مخاطر ما خارج البيت، لذا يستصعب الأهل جعل ابنتهم تنام خارج البيت حتى لحاجات التعليم، فكم بالحري نزع الفتاة من بيتها لتقع في سجن تتعرض به للاهانات يوميا دون أن يستطيع والدها الدفاع عنها وعن كرامتها. هذا الوضع يضع الأب خاصة بشعور اللاقيمة حيث يفقد شعوره بالقدرة على حماية أبنائه فيصبح عاجزا أمام بطش الاحتلال. هذا العجز يتحول إلى أعراض اكتئابية بسبب شعور الأب بفقدانه لواديه الحامية لابنته.

الأسيرة الأخت

في هذه الحالة، سأفصل النقاش ليتطرق للأخوات القربيات للأسيرة من ناحية عمرية عن النقاش حول الأخوة الأصغر سنا. في الحالة الأولى، تفقد أخت الأسيرة شريكة لها في حياتها كانت تشاركها العديد من التجارب اليومية. لذا نرى هؤلاء الأخوات يملن إلى الانطواء بسبب فقدان "الرفيق". وعادة ما تأخذ على عاتقها مهام رعاية الوالدين بدلا من الأسيرة الغائبة عن البيت. وبهذا فهي تتحمل عبء إضافيا لتعاملها مع انفصالها عن أختها. أما بالنسبة للأخوة الأصغر عمرا، فيعانون من توتر وقلق نابع من عدم إدراكهم الكامل لمعاني الاعتقال وظروفه. أسر الأخت له أثر مباشر على الأخوة ولكن الأثر الأكثر سلبية هو غير المباشر الذي ينبع من معاناة الأهل الذين يفقدون قدرتهم على الاعتناء بباقي الأطفال لما يعانونه من صعوبات نفسية في التعامل مع أسر ابنتهم. لن ننسى أنه في العديد من العائلات يقع على عاتق هؤلاء الأخوة الصغار زيارات السجن بسبب منع باقي أفراد العائلة من الزيارة لأسباب "أمنية". هذه الزيارات تتطلب من الأطفال طاقات نفسية جسدية حيث يقع عليهم مهمة هضم المواقف المهينة والمناظر المقززة في السجن. كذلك يقع عليهم مهمة الوقوف في توقعات كل من الطرفين - الأهل الممنوعين من الزيارة والأسيرة المشتاقة لأهلها، فيشعرون بتوتر كبير لصعوبة هذه المهمة ولخوفهم من عدم قدرتهم على تنفيذ هذه المهمة على أحسن وجه.

الأسيرة الزوجة

من خلال معاينة قصيرة للحالة الاجتماعية للأسيرات، اتضح أن أغلب الأسيرات المتزوجات يقبع أزواجهن في السجن أيضا. وجود كلا الزوجين في الأسر يعني وجود أطفالهما خارج السجن دون والديهما، وبهذا يكون

الأطفال تحت رعاية العائلة الممتدة وبالأخص الجد أو الجدة. كون الاطفال في حماية العائلة الممتدة بدلا لوالديهما يجعل الأسيرة وزوجها الأسير يعيشان في قلق فظيع حول مصير أطفالهما.

في الكثير من الحالات يصبح موضوع لقاء الزوجين داخل السجن موضع نضال على الحق في لقاء الزوجين ويقترن باضرابات عن الطعام ويرفع دعاوى ذات طابع قانوني. من المهم الإشارة إلى أن لقاء الزوجين هو بمثابة تحقيق لحق الزوجين في اللقاء واطمئنان الواحد على الآخر حيث يتبادلان همومهما حول اطفالهما الذين يعانون فراقهما.

أما المجموعة الثانية من الأسيرات المتزوجات فقد تم طلاقهن إما قبل الأسر أو خلال فترة قصيرة من اعتقالهن. كون الأسيرة مطلقة لأسباب تخص حياتها الزوجية بسبب قلقا مشابها لذلك الذي وصف بالنسبة للأسيرة زوجة الأسير، حيث يعيش الأطفال في ظل عدم وضوح بين عائلة الأسيرة وعائلة طليقها. هذا بالإضافة لشعور الاحباط النابع من معرفة الأسيرة أن ابناءها يعيشون مع زوجة أب التي تأخذ دورها في غيابها.

الأسيرة الأم

في طيات أسر الأم يختبئ الكثير من مشاعر الغضب واللوم اتجاهها من قبل أطفالها وذلك بسبب شعورهم بأنها تركتهم. إن معرفة الطفل أسباب غياب أمه لا يخلصه من شعوره بالرفض الذي يعيشه نتيجة لانفصاله عن أمه دون رغبته. هذه المشاعر لها آثار سلبية جسيمة فيما يخص نظرة الطفل لذاته ولإدراكه لقدراته. في العديد من عائلات الأسيرات ظهرت أعراض نقوصية مثل التبول الليلي ومص الاصبع لدى أطفال الأسيرات وذلك تعبيرا عن ضائقتهم النفسية. كثيرا ما نرى تقطب في ردود فعل الأطفال لأسر أمهم، فهناك من يلجأ للانطوائية بسبب شعوره بعدم القيمة، وهناك من يلجأ للانبساطية والعنف محاولا إرجاع شعوره بالسيطرة.

من المهم الإشارة إلى تبعات زيارة الطفل لأمه التي تمنع من حضنه والتقرب منه جسديا. فهذا الطفل المتعطش لحضن أمه لن يفهم المانع الحديدي الذي يقف بينهما بل يعطيه معاني خيالية تحمل في طياتها الرفض وعدم الرغبة في احتضانه. سلطات الاحتلال تمنع الأطفال الذين تجاوزوا 6 سنوات من عمرهم التقرب من أمهم وملامستها، مع العلم أن التلامس في عمر أصغر أيضا له محدوديات كثيرة. الفصل الجسدي المعطل بادعاءات أمنية، له انعكاسات كبيرة على أطفال الأسيرات، خاصة وأن لمس الأم هي حاجة تطويرية لدى الطفل لا يغني عنها أي تدخل نفسي.

أخيرا، حاولت خلال هذه المقالة القصيرة وصف الملاحظات النفسية لأسر النساء في المجتمع الفلسطيني مركزا في الآثار المتعلقة بعائلة الأسيرة على فئة البالغين - أهل، زوج، وأخوة بالغين - وعلى فئة الأطفال - أبناء وأخوة صغار. ولا حاجة للتأكيد بأن أسر ابنة، زوجة، أم، أو أخت هي حادثة ذات آثار نفسية واجتماعية عديدة تتسبب في انتهاكات حقوق الإنسان لذوي الأسيرة بالإضافة لحقوقها ذاتها.